شبان مصر

بين شبان مصر فئة معروفة بنزعاتها الوخيمة وأخلاقها الذميمة، ومجالسهم أضحوكة الأضاحيك في خلوها من الجد وإقفارها من معاني الرجولة والاحترام، وهم يجتمعون ويتفرقون لا يحدو بعضهم إلى بعض حبٌّ أو إخلاص؛ لأن نفوسهم الوضيعة لا تُحَب ولا تحِب، ولكنها ضرورة الاجتماع ودفع السآمة والنقمة تسوق كلًّا منهم إلى مساجرة من يكره ومعاشرة من يؤلمه سرورهم ويسره ألمهم؛ ولهذا يدخر كل منهم لصحابته أقصى ما في وسعه من التنغيص والإيجاع، ويتنقل بعضهم في الليلة الواحدة بين عشرة مجالس لا يطمئن إلى مجلس منها، ولكنه يضجر من أحدها فيغشي غيره ليُلقي كلمة لمز أو نميمة فيمن كان معهم قبل لحظة. فهو يبغض جلساءه جميعًا، وهم لا يلقاهم طائفة بعد طائفة إلا ليشفي نفسه من الغائبين عند الحاضرين، فما أعجبها من مجالس صلتُها الكره لا الولاء، ومحورها تبادل الوقيعة والإيذاء، لا تبادل السرور والصفاء. وإنما تنم الوقيعة على شيئين كلاهما شر من الآخر؛ تنم على الضعف فلا يستطيع الرجل أن ينتقم من عدوه إلا بإيغار الصدور عليه، وتنم على سوء ظن الأصحاب، فينجح بينهم السعاة وتروج عندهم الوشاية، وضعف الثقة بين قوم دليل على منزلتهم من الرجولة والمروءة وسلامة الدخلة، فكلهم منتظَرٌ منه الخون، مستبعَدٌ عليه الوفاء، وهذا أدنأ ما تنحط إليه الأخلاق وتسفل إليه النفوس.

ولو أوعبت ما في نفوس هؤلاء المساكين من الضغن والغيظ والقيح المحقون لهالَكَ الأمر، فحسبتهم يتنافسون على مأرب جسيم أو مأثرة تشخص إليها الأبصار، ولكنك متى حدثتهم عن هذه المآرب والمآثر وجدتهم يضحكون منها ويخجلهم أن يُظن بهم الاشتغال بها والاكتراث لها وأخذها مأخذ الجد والحقيقة؛ لأن ذلك في نظرهم غفلة وجهل بفرص الحياة، وما فرص الحياة في نظرهم؟ اللذة التي يبحثون عنها في كل مكان فلا

يجدونها، ولا عجب! فإن اللذة أبعد ما تكون ممن بعدها الغرض الوحيد من الحياة، وأخوف ما نخافه أن تكون هذه الروح الخبيثة قد سرت من الطبقة المترفة إلى العامة — وهم صميم الأمة وبنيتها العضلية — فيموت في نفوسهم الجد ويملكهم العبث والخفة.

ويسوءنا أن نرى بوادر هذه الروح في عامة المدن والبلدان الصغيرة، فقد أصبحوا لا يجلون شيئًا عن اللهو والعبث، ولا يرفعون الدين ولا الآداب عن المجانة والرعونة: يؤذِّن المؤذن فيتطرَّب في أذانه كأنه يدعو الناس إلى وليمة عرس لا إلى الوقوف بين يدي الله، ويقرءون القرآن تلحينًا كأنهم يترنمون بأنشودة غرامية، ويذكرون الله فيرقصون رقص المخنث في مواخير الفجور! ويمشون وراء الميت فلا يذهلهم الموت بسلطانه ورهبته عن التنصت إلى أولئك المنشدين الذين يتسابقون في التنغيم والترخيم لإطراب المشيعين! وهذه هي الأشياء التي إن لم يشعر بجلالها العامة فما هم بشاعرين بعدها بمظهر من مظاهر الجلال، والإحساس والجلال كما لا يخفى عنوان عاطفة الاحترام وتقدير العظمة بين الناس. فكيف يكون في الأمة من يُحترَم إذا لم يكن فيها من يَحترِم؟! ألا إن الذل لأفضل من هذه الحالة؛ لأن الذل في جانب يُشعر بالبطش في الجانب الآخر، ولكن السفاهة في عامة قوم تشعر بالضآلة في خاصتهم، وما ظنك بأمة تلبسها الحقارة والصغار من أعلاها إلى أسفلها؟!

لو كانت الأمة المصرية كلها على هذا النمط الذي وصفنا؛ لجزمنا بموتها موتًا قلما تحيا بعده، ولكنها لوثة أصابت المدن وسلم منها الريف، فبقي رجاله بنجوة من هذا النزق الذي داخل رءوس أهل الحضر ومسخ قلوبهم، وربما أنكرتَ عليهم بعضَ العيوب، ولكنها عيوب الصحة لا عيوب المرض، فإن كنا نرجو لمصر سلامة، فبهؤلاء تُعقد سلامتها وهؤلاء هم عتاد مصر في ثروتها الأدبية كما هم عتادها في الثروة المادية، وما كان أولى المشرفين على التربية عندنا بإنشاء المعاهد العلمية في القرى ليتخرج منها أبناء الريف؛ صحيحة أبدانهم مطهرة قلوبهم قويمة طبائعهم وأفكارهم، إذ الرجاء قليل في نبوغ أفراد من سكان الحضر يرأبون صدع هذه الأمة ويتداركون خللها، والاختبار حتى في الزمن الأخير يدل على أن أكبر نوابغ مصرهم الذين نشئُوا في القرى والكفور ولم يشبوا من طفولتهم بين جلبة المدن وغواية ملاهيها. هذا أيام كانت مصر أشبه بالقرى منها

بالحواضر الحاشدة، فما بالك بها اليوم![1] وقد اجتمعت فيها سيئات المدنيتين والتقت عندها عقابيل الداء القديم وأعراض الداء الجديد؟

كم ذا أُعاشر من صحبي وأعدائي ... من ليس يعقل آمالي وآرائي
قوم على كثب[2] مني ويفصلني ... عنهم مسافةُ بين الليث والشاء
لو كان يفرقنا بُعد الطِّلاب لما ... كنا وكانوا سوى نجم وبوغاء[3]
هم الرجال كما قالوا وليس لهم ... من الرجولة إلا فضل أسماء
لا كالرجال ولا كالغيد قد صَفِرت ... أكفُّهم من حُلى بأسٍ وحناء
لو تستبين قذاراتُ النفوس لما ... مستهم الكف إلا مسَّ إيماء
توعدوني بإعنات وقد صدقوا ... قد يُعنت النمل أعضاد الأشداء
يخاف بعضهم بعضًا ويمنعهم ... دوني مغافر[4] أقذار وأقذاء
كم نملة قتلت شبلًا ويقعدها ... عن مثلها خوف أكفاء لأكفاء
ويلي على مصر! قد أمست وليس لها ... سوى اعتزاز منوط بالأذلاء
شبان مصر وما أدري أهم زُمَر ... من الأناسي أم هم رسم وشَّاء
قد هوَّنوا الأمر حتى لو تكلفُهم ... صيد النجوم لراموا النجم في الماء
وصوروا المجد في أخلادهم صورًا ... شوهاءَ أغنتهمُ عن كل علياء
يا ليتها صُور نمت على شبه ... من الحقيقة أو دلَّت بسيماء
لكنما المجد في تزويق طليتها ... ماء السراب لعين الظامئ النائي
خافوا وقالوا: لنا حزم وتجربة! ... إن كان ذا الحزم، ما جبن الأخسَّاء؟
تحركوا ثم قالوا لا جمود بنا ... أين التأوه من صمت الأصحاء؟
تخايلوا في معاليهم وما علموا ... أن التورم لا ينمو بأعضاء
وما تطلع منهم في السماء فتى ... إلا بعين عن الأضواء عشواء

[1] اليوم هذا هو سنة ١٩١٧.
[2] قرب.
[3] تراب.
[4] دروع.

آمالهم في المعالي تحت أرجلهم ... فما ينالونها إلا بإحناء
قد أكملوا النقص موفورًا فلا عجب ... ألا يضيقوا بتنقيص الأجلاء
هم أسرع الناس في قدح فإن طلبوا ... ما يجلب المدح أعيوا كل إعياء
أستغفر الصدق، بل لا ينظرون إلى ... مدح وما كَلِفوا يومًا بإطراء
أستغفر الصدق بل لا يمدحون سوى ... ما يُخلق الوجه من خزي وإغضاء
نحُّوا وجوهَكم عني فقد سئِمت ... نفسي المقابرَ في أسلاخ أحياء
في كل دار شباب ينهضون بها ... إلى العلا بين جيران وأعداء
لا يحفلون أعاشوا وهي ناجية ... أم أصبحوا طي أرماس وإحناء
يعلو بهم ذكر من بادوا ومن لحقوا ... وأنتم عار آباء وأبناء
أإنكم بشر؟! إني برئت إذن ... من آدم حين يدعوني وحواء
قُدُّوا ملابسكم عنكم فإن لكم ... في كل فعلة سوء ألفَ عوراء
مقابحٌ لو تواريها لما استترت ... بليلة من ليالي الشؤم ليلاء
أهون بإبداء عورات الجسوم إذا ... ما عُرِّيَ الخيم[٥] من فضل وآلاء
يا سُبة الخلق هل في الأرض من دنسٍ ... يزري بكم بعد هذا أي إزراء
إن البغِيَّ[٦] إذا استحيت لساخرة ... من الصيانة سخرًا يضحك الرائي
وأعجب الأمر أن الفضل يخجلكم ... بُهرًا، ولم تخجلوا من عار نكراء
يطأطئ المرء منكم لو يقال له ... صنعتَ صنعَ كريم النفس أبَّاء
ينافق المرء منكم وهو يزعمه ... ظَرفًا يُشيد به بين الأخلاء
ويغدر المرء منكم وهو يحسبه ... عفوَ البديهة من لؤم وإيذاء
ويضحك المرء منكم وهو عن عرُض ... يرمي بلمز وإيقاع وبغضاء
يخشى على ثوبه نقْطَ المداد ولا ... يخشى على عِرضه تمزيق فرَّاء[٧]
لتحسبنَّ مريد الجاه بينهم ... يمشي إلى حانة أو بيت فحشاء
يمشي ولو كان وَقرًا ما يسير به ... من المساوئ أنضته بأعباء

---

[٥] الطبع.

[٦] المومس وهي إذا تظاهرت بالخجل كان خجلها مضحكًا.

[٧] فراء قطعة، والفراء القاطع.

ضاق المجال بطلاب العلا فمشى ... إلى العلا كل همَّاز ومشَّاء
جدوا وصلى[٨] الكرام الصيد خلفهمو ... ما الطِّرف[٩] في كل ميدان بعداء
تعيا الجياد وتستن[١٠] الخراف إذا ... تجاولا بين أسداد وأفناء
ويلي على مصر قد أمست وليس بها ... ضرب من الصدق إلا قول هجَّاء
تجنبوا الصدق حاشى في شتائمهم ... فهم نبيون في ظن وإنباء
مشهَّرون أسروا الأمر أم جهروا ... فليس إخفاؤهم إلا كإفشاء

الحرام والحلال

أمَا آن للحسن أن يعدلا ... وللقلب في الحب أن يعقلا
لقد وضح الحسن للمبصري ... ـن، فما لهوى الحسن قد أشكلا
حبيبي الذي لست أعني سوا ... ه إذا فُهت بالقول مسترسلا
وقِبلة شعري التي أنتحي ... إذا أجمل الشعر أو فصَّلا
كأن مآقي ما رُكِّبت ... إلا لترعاك أو تأفُلا
فما أعشق الحسن إلا عليـ ... ـك، وكالوحش بعدك ريم الفلا
وما عمهت مقلتي عن سوا ... ك، ولكنما القلب منك امتلا
حذقت بكيدي فهل علَّمو ... ك فما أحسب الكيد مستسهلا
ولو علموك لأخطأتني ... فقد يخطئ الطاعن المُفْصَلا

* * *

أحين صرفنا إليك القلو ... ب، قضيت فحرَّمت ما حُللا؟
قبيح بعينيَّ أن تنظرا ... ولكن لعينك أن تقتلا
وحب الجمال حرام عليَّ ... وأما اختيالك فيه فلا

---

[٨] المجلي: الجواد السابق، والمصلي: الذي يليه.
[٩] الجواد.
[١٠] استن الجواد: وثب للعدو.